بسم الله الرحمن الرحيم

التعصب والطائفية

إعداد د. أحمد عبدالعال

إن التآلف والتعاون بين المسلمين ووحدة الصف واجتماع الكلمة ،ومن ثم نبذ الخلاف والفرقة والتنازع مقولات يعرفها كل مسلم من صريح الخطاب القرآني الكريم ، وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك قول الله عزوجل: "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا "[١]، وقوله أيضا:"ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون"[٢] ، وما يؤكده العلماء والخطباءعبر العصور في أحاديثهم ، وخطبهم ، وكتاباتهم ، بل هذا ما يتداوله عامة المسلمين في مجالسهم ومنتدياتهم ، وهم يرون ويسمعون ما حل بالأمة من تفرق بدل الاجتماع ، وتنازع بدل الاتفاق ، واقتتال بدل التصالح والتفاهم .

ولو سرحنا طرفنا بعيداً إلى الماضي إلى مئات السنين فسنجد دنيا واسعة تظللها سماحة الإسلام ، يعيش في حماها المسلم وغير المسلم ، في حصن من الأمان ،وحال من الرضا ،تحت حكم المسلمين ، لاظلم ، ولا تعصب، ولا عنف ولا اغتصاب ، بل عدل وسماحة وأمان وسلام .

وعندما نتأمل الأسباب التي أدت إلى هذه المفارقات الكبيرة المؤسفة بين موقف المسلمين وحالهم في أمسهم ويومهم، فسرعان ما نهتدي إلى أن ضعف المسلمين جاء من تفرق كلمتهم ، وشتات شملهم، نتيجة لتفرق المذاهب والمعتقدات ، بل بسبب الاجتهادات ضمن المذهب الواحد أحياناً.

فمذاهب المسلمين المختلفة ، واجتهاداتهم الخاصة كانت الباب الذي دخل منه الخلاف ، واستغل أعداء الإسلام هذه الثغرة فوسعها وباركها ؛هذا إمامي ،وهذا زيدي ،وذاك أباضي ،ثم نلتفت مرة أخرى فنجد أيضاً بين أهل السنة اختلافاً وتنازعاً ؛ هذا صوفي وهذا سلفي إلى غير ذلك ، فضلاً عمن غلا في مذهبه غلواً كبيراً أخرجه عن دائرة الإسلام مع أنه يزعم الانتساب إليه ،فهذا درزي وذاك اسماعيلي ، والآخر نصيري إلى آخر سلسلة من الافتراق ليس لها نهاية .

وكما أشرت سابقاً إلى أن لدى المسلمين الكثير من النصوص والمقولات التي تؤكد على وحدة الكلمة ونبذ الخلاف والفرقة ، فلماذا لم تتحقق هذه التطلعات ؟ .

ولا نقف طويلاً أمام البحث عن أسباب هذا الاختلاف والتنازع بعد أن نكتشف أننا أمام مرض اجتماعي واسع الانتشار على صعيد الأمة بشكل عام ، ذلك هو "التعصب" الذي يشكل عائقاً أساسياً أمام كل الشعوب والطوائف ، فهو يكرس أسباب الفرقة ،ويهدم ما هو موجود من أركان اللقاء والوحدة والتعاون .

فما هو التعصب ؟وما مظاهره ؟ وما أسبابه؟ وما نتائجه ؟

معنى التعصب:

للتعصب في لغة العرب معان عدة منها :

١- يأتي بمعنى الشّدة يقال : عصَب رأسه ، وعصّبه تعصيباً شدّه، ومنه قوله تعالى :"هذا يوم عصيب" [٣] ،أي شديد في الشر .[٤]

٢- ويأتي بمعنى : التجمع والإحاطة والنصرة ومنه ، قوله : عُصبة الرجل أي بنوه وقرابته لأبيه ، وكل شيء استدار بشيء فقد عصب به ، والعمائم يقال لها العصائب ، ويقال : عصَبَ القوم بفلان أي استكفوا حوله .

والتعصّب من العصبية ، والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصرة عُصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين ، والعصبي هو الذي يغضب لعُصبته ويحامي عنهم .[٥]

إذن فالتعصب عند أهل اللغة جاء بمعنى الشدة والإحاطة والنصرة.

أما معنى التعصب في الاصطلاح :

فإن المعنى الاصطلاحي للتعصب لا يخرج عن المعنى اللغوي ، فالتعصب هو: التشدد وأخذ الأمر بشدة وعنف ، وعدم قبول المخالف ورفضه ، والأنفة من أن يتّبع غيره ، ولو كان على صواب . [٦]

و التعصب أيضا هو نصرة قومه أو جماعته ، أو من يؤمن بمبادئه سواء محقين أم مبطلين ، وسواء كانوا ظالمين أو مظلومين .[٧]

فالتعصب هو عدم قبول الحق عند ظهور الدليل ، كما أنه أخذ الأمر بالعنف والشدة ، وعدم تقبل الآخر بعيداً عن النظرة الموضوعية المنصفة المتوافقة مع الحقيقة والواقع .

والتعصب ظاهرة قديمة حديثة يرتبط بها العديد من المظاهر كالتمييز العنصري ، والديني ،والطائفي، والعرقي ، والإقليمي ،والقبلي وغير ذلك.

ويمكن أن نخلص من هذا إلى أن التعصب ضد التسامح، والانغلاق ضد الانفتاح ، والتشدد ضد الرفق ، ورفض الآخر وعدم قبوله، ضد التواصل معه والتعايش والتوافق ، والعصبية والحمية ضد التجرد للحق والانتصار له ، فمعاني التعصب ممقوتة مذمومة ،وضدها هذه المعاني الجميلة المحمودة .

من مظاهر التعصب: [٨]

١- التعصب الحزبي :

وهو التعصب للفئة، أو الحزب، أو الجماعة التي ينتسب إليها الفرد ، والانتصار لها بالحق والباطل ، ، وإضفاء صفة العصمة والقداسة عليها ، وذكر مزاياها ،ومحاسنها، ومهاجمة غيرها ،بذكر عيوبها، وسيئاتها ،ويعظم حزبه ، ويحتقر غيره .

٢- التعصب القومي :

وهو الانتصار للقومية التي ينتسب إليها لمجرد القومية ، كتعصب الأتراك لقوميتهم(الطورانية) في آواخر الخلافة العثمانية ، وفي مقابل هذاالتعصب تعصب العرب لقوميتهم (العربية) وهكذا، وحروب القوميات لا تخطئ على الناظر وقد تقع في البلد الواحد.

٣- التعصب المذهبي ، أو الطائفي :

هذا التعصب الذي فرق المسلمين وجعل لهم أربعة منابر في الحرم المكي حول بيت الله. ومنع الشافعي أن يصلي خلف الحنبلي، والحنبلي خلف المالكي، وهلمّ جرا ،وأغلق باب الاجتهاد في وجه الأمة ، والتعصب الطائفي الذي أشعل نار الفتنة والقتال بين طوائف الأمة، كتعصب الخوارج ضد الصحابة وقتالهم ،و تعصب الشيعة ضد أهل السنة .

٤- التمييز العنصري :

بسب الجنس كتمييز الذكور ضد الإناث ،أو اللون كتمييز الأبيض ضد الأسود ، أو الأرض والوطن كالتمييز الحاصل ضد المهاجرين واللاجئين، أو القبيلة كالتمييز ضد أبناء القبائل الأخرى واحتقارهم .

٥- التعصب الفكري وهو رفض الآخر، وعدم قبوله، والاستماع إليه، وترك التجرد والإنصاف في الحكم عليه، والتشدد في التعامل معه، ونقده بأقذع الصور، وتكوين صورة وإطار معين لفكر المخالف مشوبة بكثير من الأخطاء والمغالطات لأنها قائمة على أسس واهية من التعصب والتحجر .

خصائص، وصفات المتعصب:

يختص المتعصب بسمات عامة منها:

١-العاطفة الشديدة والميل القوي :

إن المتعصب لشيء أو ضده يتسم بالعاطفة الشديدة والميل القوي فهو في حالة التعصب لقومه،أو قبيلته، أو طائفته ،أو وطنه ،أو أفكاره ، لا يرى فيما يتعصب له إلا الإيجابيات والمحاسن ، ومن يتعصب ضده لا يرى فيه إلا المعايب والسلبيات ، فهو إنسان غارق في أهوائه وعواطفه ، إنه يفكر ولكنه يفكر باتجاه واحد ،وهو إطار العواطف الجامحة التي لديه ، وتكون مهمة التفكير الأساسية لديه ليس ترسيخ

الاعتدال والإنصاف ، وإنما التسويغ للميول، والعواطف العمياء التي تغلي في صدر الإنسان المتعصب .

٢- رفض المناظرة والحوار :

ذلك لأن المتعصب يوحي إليه هواه بأنه على الحق الواضح الذي لا يقبل حواراً ولا مناظرة، فهو يرى أنه على حق مطلق، والآخر على باطل مطلق ، وهو وان حاور فإن حواره يقوم على أسس غير موضوعية وغير عقلانية .

٣- العجلة في إصدار الأحكام على الآخرين .

إن المتعصب يصدر الأحكام على الناس من غير فحص للأدلة والبراهين والأسس التي تقوم عليها تلك الأحكام ، إنه مع قومه فيما يحبون وفيما يكرهون ، هو مع قومه فيما هم عليه حقاً وباطلاً ،و هم في كل ذلك على صواب ،ولا يحتاج ذلك إلى أدلة .

ومنه قول الشاعر الجاهلي قريط بن أنيف العنبري التميمي (٩):

لايسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وكذلك قول الشاعر الجاهلي دريد بن الصمة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت .... غويت وإن ترشد غزية أرشد

٤- التعميم المفرط .

إن التعميم المفرط من أكثر أخطاء التفكير شيوعاً، وذلك بسبب عجز معظم الناس عن إصدار أحكام مبنية على رؤية تفصيلية منصفة ، إن أي فضيلة تثبت لواحد من أفراد جماعة المتعصب يعممها على باقي جماعته .وإن أي رذيلة تثبت عن جماعة منافسة يقوم بتعميمها على أبناء كل تلك الجماعة ، وفي هذا من الظلم لا يخفى ، وهكذا فالمحاباة والتحامل صفتان أساسيتان لدى الانسان المتعصب ، وهاتان الصفتان توجدان خللاً كبيراً في الشخصية ، ولهذا فإن المتعصب يكون في الغالب محروماً من التوازن العقلي ، والانفعالي الذي يتمتع به الأسوياء (١٠).

أسباب التعصب:

لعل من أهم تلك الأسباب ما يلي :

١- اتباع الهوى والإعجاب بالرأي :

وهو من أهم أسباب التعصب ، فمن لم يتخذ القرآن والسنة مرجعية يحتكم إليهما في كل شؤونه ، وهو معجب برأيه ، فلن يتبع الحق مهما ظهر دليله ، والله تعالى يقول :"أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً"[١١]

٢- الجهل :

فالشخص،أو الجماعة ،أو الطائفة ،أو الحزب، حين يجهل ما عليه الآخرون فانه يقع فريسة لأحاديث المجالس غير الموثوقة ، والمتحاملة ،كما يقع فريسة للدعاية المضادة .

وحسبنا أن نقول :إن الهجوم على الإسلام اليوم ومحاربته من كثير من الشعوب الغربية هو بسبب الجهل بمبادئه، وعدم معرفته على الحقيقة ، هذا مع تعمد التشويه وإلقاء الشبهات عبر الوسائل الإعلامية المختلفة .

٣- تقديس الأشخاص والرموز من القادة الدينيين والمفكرين وغيرهم ، والغلو فيهم ،كما قال تعالى : اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله " ،[١٢] وهذا التقديس والغلو يصل إلى درجة ،إضفاء صفة العصمة والقداسة مما يؤدي إلى التعصب لهذا العالم، أو لهذه الجماعة، أو الطائفة، أو القبيلة.

٤- التنشئة الاجتماعية :

فالنشأة في بيئة تعمل على إزكاء التمييز ضد الطوائف الأخرى، أو اللون، أو الجنس، أو الجماعة، أو الفكر، وتغذي روح التعصب ضد الآخر تنتج لنا أناساً متعصبين ومتحجرين ومتطرفين ، وفي مثل هذه البيئات يكون التعصب هو الصبغة العامة الذي ينظم سلوك الأفراد وفكرهم .

٥- الانغلاق وضيق الأفق :

فنجد كثيراً من الطوائف والجماعات منغلقة على ذاتها، لا تسمع إلا نفسها، ولا ترى إلا ذاتها ، وتمنع أتباعها من الاستماع لغيرها ،وكثير من الأفكار المتطرفة ،والعصبية العمياء تنشأ في السراديب المظلمة، والأجواء المغلقة التي تنتج الإرهاب ، ورفض الآخر، والعنف الموجه،وتكفير المخالف .

٦- غياب أخلاقيات الحوار والتعامل مع المخالف :

مثل العدل ،والإنصاف، والتجرد ، والتعامل معه رغم الاختلاف ، والثناء عليه بما أصاب ، والدفاع عنه إذا ظلم .. إلخ [١٣]

بين التعصب المحمود والتعصب المذموم :

من خلال حديثنا السابق عن التعصب كان قصدنا بيان حقيقة التعصب المذموم وأسبابه ،وهو التشدد وأخذ الأمر بالعنف ،وعدم قبول المخالف ورفضه ، والأنفة من أن يتبع غيره ولو كان على صواب .

وهذا يلزم منا أن نفرق بين نوعين من التعصب ، تعصب محمود ، وتصعب مذموم وبينهما فارق دقيق .

فمن مظاهر التعصب المحمود :

١- الانتصار للحق، والتمسك به،والدفاع عنه : فالتمسك بكتاب الله عزوجل وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،والعمل بمقتضاهما والدعوة لهما ، ليس من التعصب المذموم، بل تعصب محمود ،ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم للحارث بن مالك عندما سأله عن حقيقة إيمانه فأخبره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :"عرفت فالزم" [١٤] وهذه دلالة من النبي صلى الله عليه وسلم للحارث بن مالك بأن يتعصب للحق الذي عرفه .

٢- شعور الانسان بحبه العميق لهذا الدين الحق، وانتمائه لأمة الاسلام هو من صميم إيمانه الذي انعكست أنواره في قلبه وعلى جوارحه ليس من التعصب المذموم، طالما أنه لم يصل إلى درجة الغلو الذي حذر منه الحق تبارك وتعالى في قوله:"يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق " [١٥]

٣- الاعتزاز بعظمة هذا الدين، وانه جاء ليخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ،وأنه الدين الخاتم الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء،وأنه الدين الحق، ولا يقبل الله ديناً سواه.

٤-ليس من التعصب الاعتزازبالشخصية الإسلامية التي ترفض التبعية والانهزامية أمام أعدائها، مما يدعوهم إلى رميها بالتعصب كما هو حال اليوم .[١٦]

٥-ليس من التعصب المذموم حوار المخالف والرد عليه علمياَ، وكشف خطئه ،وبيان نوع الزلل الواقع فيه إن كان كفراً ،أو بدعة، أو معصية، مع الحفاظ على أدب النقد العلمي الرصين ، وأدب التعامل مع المخالف ، وعدم إطلاق الأحكام المسبقة جزافاً لمجرد المخالفة .

٦- حرص الانسان على معرفة نسبه ،وحبه لقومه ،ووطنه ،وانتمائه إليهم تعصب محمود، طالما ليس فيه ازدراء للآخرين، وانتقاص لحقوقهم ، ولا يكون انتماؤه لبني قومه ووطنه على سبيل الحمية الجاهلية التي لا تفرق بين الحق والباطل .

آثار التعصب المذموم على الأمة الإسلامية[١٧]

١- تفرق الأمة الاسلامية :

إن من أبرز آثار التعصب المذموم هو تفرق الأمة وتمزقها ، واثارة البغضاء في نفوس أبنائها .والله تعالى يقول :"ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون"(١٨).

وعن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :"ليس منا من دعا إلى عصبية ،و ليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية " (١٩)

٢- تأخر الأمة وتراجعها وإيقاع الوهن في كيانها .

وهذا نتيجة للأثر السابق، فإن تفرق الأمة وضعفها يجعلها فريسة سهلة لأعدائها لعجزها عن الدفاع عن نفسها ، فتهون على أعدائها فيجتمعون على استئصالها .

فعن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ،فقال قائل: أمن قلة نحن يومئذ ، قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل "الحديث(٢٠).

٣- نشر الكراهية والتدابر والتباغض والتقاتل بين أبناء الأمة الواحدة، ولو نظرنا إلى واقع أمتنا المسلمة، وتأملنا طبيعة الصراع بين الطوائف المختلفة في بلاد المسلمين، لعرفنا مدى خطورة التعصب وآثاره بين طوائف الأمة الواحدة ، تلك الكراهية التي لا زالت تؤدي إلى سفك الدماء ، وازهاق الأرواح ، وما يجري اليوم في سوريا والسودان والصومال والعراق واليمن وغيرها إلا دليل واضح على ذلك .

كيف عالج الإسلام التعصب؟

لقد حارب الإسلام كل أشكال التعصب والانغلاق ،وحث على التعارف والتواصل ، وإشاعة روح التسامح ،وإغلاق الأبواب أمام كل أسباب التعصب المذموم ، ومن ذلك:

١- بين الله تعالى أن الناس مهما اختلفوا وتباعدوا فإن عليهم أن يتذكروا أنهم جميعا من أب واحد، وأم واحدة، يقول الله تعالى :يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا...الآية(٢١)

٢- أمرنا الله بالعدل والإنصاف مع أنفسنا والآخرين فقال:" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون "(٢٢)، وقال أيضا :"وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"(٢٣).

٣-حرم الله تعالى الظلم والبغي مع المخالف"ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلواهو أقرب للتقوى"(٢٤).والإسلام دعانا الى قبول الحق مهما كان مصدره ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها،يقول عليه الصلاة والسلام: الكبر بطر الحق وغمط الناس"(٢٥).

٤-حذر الإسلام من الغلو في الاشخاص ،وإنزالهم فوق منزلتهم،قال عز وجل عمن قبلنا من الأمم : "اتخذواأحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله"(٢٦)،ثم قال عن نبينا صلى الله عليه وسلم وهو سيد المرسلين:"وما محمدإلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا"(٢٧).

٥-يقرر الإسلام أن أساس التفاضل بين الناس ليس اللون، أو الجنس، أو القبيلة، أو الطائفة، أو الحزب، أوالوطن...الخ ، وإنما التقوى، والعمل الصالح"إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(٢٨).فلا يفتخرن أحد بآبائه وأجداده بغير حق ،إنماهو مؤمن تقي أو فاجر شقي ،والناس كلهم لآدم وآدم من تراب .

٦-الإسلام دين الرحمة، والإحسان مع المخالفين حتى مع المشركين (غير المحاربين)فكيف الحال مع المسلمين ، قال الله تعالى :"لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم"(٢٩).

٧-حث الإسلام على الرفق واللين، وتجنب الشدة ، والفظاظة، والغلظة، تعليماً للمسلم أدب التعامل مع الآخرين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه" (٣٠).

ويقول لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :"يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عاى الرفق مالايعطي على ما سواه"(٣١)

التعصب المذموم " الطائفية نموذجاً "

ورد مصطلح الطائفية في النصوص الشرعية ، ولم يأت على سبيل الذم في كل الأحوال ، بل إن الشريعة الاسلامية مدحت الطائفية ،كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم :"لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق .." [٣٢].

قال الإمام النووي-رحمه الله- ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين : منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد ،وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر . ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض " [٣٣]

أما المعنى اللغوي للطائفة :

فيقول الراغب في المفردات : والطائفة من الناس جماعة منهم،قال الله تعالى :"فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين " وقال بعضهم :قد يقع ذلك على الواحد فصاعداً ، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ،والطائفي نسبة إلى الطائفية [٣٤] .

لكن المعنى الاصطلاحي المعاصر للطائفية قد أخذ أبعاداً جديدة في بيئتنا الاجتماعية والسياسية . فقد تم مزج المفهوم العددي للطائفية مع مفاهيم أخرى ذات مضمون فكري، أو مذهبي، فتحول إلى ما يشبه الإقليمية العددية، والمنفصلة عن فاعلية الأمة ،وبذلك أصبح مفهوم الطائفية يستخدم بديلاً عن مفاهيم الملة، والعرق، والدين ، التي كانت سائدة قبل ذلك. واختلطت هذه المفاهيم جميعاً في بيئة متزامنة فكرياً وسياسياً فأنتجت مفهوم الطائفية باعتباره تعبيراً عن حالة أزمة تعيشها مجتمعات عربية ، مثل العراق، ولبنان ، وسوريا وغيرها، حيث أصبحت الطائفية مذهباً ، وأيديولوجية ، وهوية ، حلت محل الهويات الأخرى والانتماءات الأعلى .

مفهوم الطائفية يكشف عن وجهين متضادين :

الأول: إيجابي وهو ميل الإنسان إلى الطائفة التي يتفق معها عقدياً، ومذهبياً،وعرقياً، وجغرافياً.

الثاني: سلبي يرتبط بالتعصب الطائفي وما ينجم عنه من أوهام وانحرافات ، تضاف إليه تأثيرات خارجية مرتبطة بمصالح خاصة ، ويعمق هذا الاتجاه مشاعر(الشحن) الطائفي المتكرر (موسم عاشوراء، ومناسبة ولادة الأئمة ،والأربعينية ، وغيرها عند طائفة الشيعة الإمامية) ،ومايرافقه من تذكير بثارات تاريخية مغلوطة(بالثارات الحسين). وما يرافقه من تحريض طائفي ضد أهل السنة (قتلة الحسين كما يزعمون) .فتحولت الطائفية إلى شكل من أشكال العنصرية ، وما ترتب عليه من تداعيات تنامت فيها ظاهرة التكفير، والاستخفاف بدم الآخر، وممتلكاته، ومقدساته .

الطائفية السياسية :

المقصود بالطائفية السياسية: كل نزعة سلطوية عصبية أو عرقية، تستغل الدين من أجل التعبئة وبسط النفوذ ، وبالتالي هي بعيدة عن القيم الروحانية، والمثل الدينية وتعاليمه ،لأنها نوع من التحزب السياسي لأغراض دنيوية ، فهي تسخر الدين وتستغله من أجل تحقيق أهدافها وبرامجها الخاصة ، ولنأخذ مثالاً على ذلك الصراع الحديث بين السنة والشيعة ،وكيف استغلت الطائفية لتحقيق أهداف سياسية ، وأبعاد استراتيجية ،ثم الى فتنة عمياء.

ففي أثناء حكم الشاه محمد رضا بهلوي الذي استمر ما يقرب من أربعة عقود، (١٩٤١-١٩٧٩م) بل ومنذسقوط الدولة الصفوية (١٧٨٥م) لم تشهد المنطقة صراعاًطائفياً،ولم يكن بين إيران وجيرانها صراعات أوحروب ، حتى وصل الخميني وأتباعه الى السلطة في إيران عام ١٩٧٩م وهوماسمي بالثورة الإسلامية،ثم ما لبثت أن ظهرت شعارات جديدة مثل تصدير الثورة ، والثورة العالمية. ورأى العالم الاسلامي نفسه أمام مخطط توسعي إيراني صفوي جديد، يسعى للهيمنة على العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وقد بدأت خطواته

التنفيذية العسكرية في كل من العراق، وسوريا، ولبنان ،واليمن ، وغيرها كما سيـأتي.

إن شعار تصدير الثورة الذي رفع مع بداية الثورة الخمينية لم يكن هدفه تصدير الثورة فحسب، بل أيضاً تصدير المذهب الشيعي الإمامي إلى الدول المجاورة، وسائر أطراف العالم الاسلامي الذي يدين بمذهب أهل السنة والجماعة . ويرى المحللون أن قيام الحرب العراقية الإيرانية ، والحرب الأهلية في افغانستان وما يجري اليوم في العراق وسوريا ولبنان من استهداف لأهل السنة، والنشاط الدعوي المحموم في العالم الإسلامي للمذهب الشيعي ، هو ثمرة من ثمار تصدير الثورة والمذهب ، وإن السلوك الطائفي الإيراني الصفوي حيال أهل السنة والجماعة بعد نجاح الثورة : تحديات ، إثارة الفوضى ، حروب وتصفيات على الهوية ، أو ما يسمى بالتطهير الطائفي ، وما يرافق ذلك من فظائع انسانية .

نشرت صحيفة كيهان الايرانية الصادرة في طهران بتاريخ ١٤٠٧/١٢/٣هـ رسالة للخميني ومما جاء فيها : ان الكعبة هي أفضل مكان للتظاهر واطلاق الشعارات ضد القوى المعادية ، وعلى جميع الحجاج أن يشتركوا في مسيرة البراءة ..."

وينتقل الخميني في رسالته إلى حملة هجوم مريرة وحاقدة ضد علماء المسلمين كافة في شتى أنحاء الأمة الاسلامية فيقول : إن وجود رجال الدين المزورين يشكل خطراً على الشعوب ، مهدداً دول الخليج ، وإن إيران ستحِّول المنطقة إلى قطعة من نار. ويقول: إن بلاده ستواصل الحرب، وإنها لم تستخدم كل إمكاناتها لإشعالها وتصعيدها أكثر " واننا نريد تصدير ثورتنا إلى مختلف أنحاء العالم " [٣٥]

ونشرت "مجلة الدستور" اللندنية[٣٦] في أحد أعدادها وصية الخميني ، وقد جاء في هذه الوصية : أنا أعرف أن هذا الجيل - يقصد الجيل الجديد في إيران-

سوف يفتح أبواب العالم ، كي يستقر معنا في أرجاء المعمورة ولأننا نحتاج إلى تطهير مجتمعنا ،وحتى لوانتهت الحرب مع العراق علينا أن نبدأ حرباً أخرى في مكان آخر.

ثم يقول في وصيته : "كنت أحلم أن يعطيني الله -عزوجل- عمراً كافياً ، لكي أشاهد علمنا على مشارف بغداد، وعمان، وأنقرة، والرياض ، ودمشق ، والقاهرة ، والكويت ، ومسقط، حتى كابول وكراتشي "

وإليكم ثلاثة نماذج لصور الاضطهاد الطائفي الذي تدعمه إيران الصفوية ضد أهل السنة في العراق وسوريا ولبنان ، في إطار المخطط التوسعي الإيراني الطائفي .

أولاً: العراق والحرب الطائفية ضد السنة(٣٧)

إن الحرب الطائفية في العراق والتي تستهدف السنة تحديداً ومناطقهم ومدنهم ذات الأهمية الاستراتيجية قد بدأت بالفعل بشكل رسمي ، فهي تستهدف المساجدالسنية، والعلماء، والخطباء،والرموز السياسية ،والإعلامية ،والاجتماعية ، ومنازل عامة الناس ، وأعمالهم حتى بلغت حداً جنونياً.

إن الاجراءات التي يقوم بها نوري المالكي (الذي أقام مدة ثمان سنوات في إيران إلى عام ١٩٨٧ وكان يتولى مسؤولية الذراع العسكري ل "حزب الدعوة" الذي أسس برعاية إيرانية ،ودعم فني وعسكري منظم)، ومن قبله إبراهيم الجعفري في مجال منح الجنسية العراقية للإيرانين ،وتسكينهم في مناطق عديدة في بغداد وبعض المناطق السنية ، والغاية من هذه الاجراءات هو تغيير الطبيعة الديمغرافية للعراق بما ينسجم ومتطلبات تعاليم المرشد الأعلى للثورة الايرانية، إضافة إلى عملية تهجير منظمة لأهل السنة من مناطقهم واستيلاء الشيعة على مساكنهم وممتلكاتهم، وأيضاً استصدار قانون خاص بالإرهاب يهدف إلى إعدام أبناء السنة المناهضين للسياسة الطائفية التي تمارسها الحكومية العراقية المدعومة

من إيران .

ثانياً: النظام السوري الطائفي وهيمنته على الدولة :

المعروف أن أهل السنة في سوريا يمثلون أكثر من ٨٠% من مجموع الشعب السوري، والطائفة النصيرية (العلوية) تمثل ١٠% من مجموع السكان، والمعلوم أن الطائفة النصيرية فرقة باطنية ليس لها عقائد مشهورة سوى الاعتقاد بتأليه علي رضي الله عنه، وتأويل أركان الاسلام تأويلاً باطنياً بعيداً عن ظواهرها(فدينهم الذي يدعونه دين بلا تكاليف)، وأيضاً القول بالتناسخ وانتقال الأرواح من جسم إلى جسم، وليس في عقيدتهم اعتقاد بحياة أخروية بعد هذه الحياة، أو أعتقاد بجنة أو نار.

والشيء الثابت في مؤلفات الشيعة الإمامية، وفتاويهم تكفير النصيرية، وأنهم ليسوا من المسلمين بالنظر إلى عقائدهم التي لا تمت إلى دين الاسلام بصلة.

ومنذ أربعة عقود وعبر مخطط مدروس من قبل الطائفة النصيرية في سوريا وأطراف خارجية استطاعت الطائفة الاستيلاء على قيادات الجيش السوري، وأجهزة المخابرات التي بلغت سبعة عشر جهازاً، وأيضاً على ثروات الدولة النفطية ، والعقارية، والتجارية،والمالية، والوظائف العليا في الدولة ، وأمسكت الطائفة بمفاصل النظام الحيوية في في شتى المجالات في حين همِّش أهل السنة (وهم الاكثرية المطلقة)، ونالهم من قمع الدولة وتسلط أجهزة الجيش والمخابرات،وتجفيف منابع التدين، والنشرالمنظم للفساد على مدى أكثر من أربعة عقود ، وأدى هذا إلى استفزاز أهل السنة ورفضهم للتسلط الطائفي البغيض الذي تمارسه السلطه الحاكمة النصيرية .

ومن الانتفاضات الشعبية على مظاهرالظلم والفساد خلال العقود الأربعة الماضية:

أ- اضطرابات حمص في منتصف ديسمبر ١٩٦٣م

ب- أحداث بانياس في فبراير عام ١٩٦٤م

ج- أزمة حماة في ابريل عام ١٩٦٤ م

د- أزمة الدستور (الذي حذف منه مادة دين الدولة الاسلام) عام ١٩٧٤

ه- انتفاضة حماة وبعض المدن السورية عام ١٩٨٢م

و- الثورة السورية الراهنة ١٥ فبراير ٢٠١١ م.

لم يكن لموقف علماء الشيعة الذين يكفرون النصيرية أثر في استراتيجية الثورة الإيرانية الصفوية الجديدة. فقد بدأ التقارب بين الطائفتين بعد سقوط الشاه ووصول الخميني إلى السلطة ،اذ وجد الخميني في النظام السوري النصيري (العلوي) امتداداً استراتيجياً للثورة الإيرانية لتصدير الثورة والمذهب، والمصالح الاقتصادية المتوقعة من هذا التقارب، لا سيما وصول إيران إلى مياه البحر المتوسط.

ووجد حافظ أسد في التقارب مع إيران مصلحة للطائفة النصيرية،بالنظر الى قوتها العددية،والمادية،ومذهبها الشيعي الذي يدين به كثيرون حول العالم، فاطلق يد علماء الشيعة الإيرانين في سوريا، ولا سيما في جبال النصيرية ليحقق بذلك هدفاً استراتيجياً لدولته الطائفية، وهو الدعم من دولة قوية، ذات مذهب عقدي ، وفقهي ، و له حضوره على الساحة الإسلامية والدولية.

وبدأت العلاقات العسكرية والاقتصادية والمذهبية تنمو وتتعاظم بين الكيانين الإيراني والسوري حتى أصبح لإيران حضور ظاهرومنهج على الأراضي السورية وفي شتى المجالات:

- مراكز ثقافية ومكتبات عامة .

- تملك مشاريع عقارية كبيرة في أرقى المناطق في العاصمة دمشق وريفها

- اقامة المستشفيات بأسماء شيعية (مستشفى الخميني بدمشق مثلا).

- تأسيس الثانويات والكليات الشرعية (الشيعية).

- الدعم العسكري غيرالمحدود للنظام(بالسلاح والخبرات الفنية والاستشاريين).

- الزيارات المنظمة" للعتبات المقدسة "الشيعية في سوريا.

- العمل على النشرالممنهج للمذهب الشيعي في المجتمع السوري،باستغلال جهل الناس وفقرهم.

- الدعم المطلق المتبادل بين النظامين السوري والإيراني في المحافل الدولية.

وهذا جعل السلطة الإيرانية الصفوية تنظر إلى النظام السوري وبشار الأسد على أنه يمثل بعداً استراتيجياً وخطاً أحمر لا مجال للمساومة عليه ،وقد صدرت تصريحات عن كبار رجال الدولة الإيرانية أن الدفاع عن دمشق مقدم على الدفاع عن طهران ،ودعوة الشيعة في العالم للانخراط مع النظام السوري في مواجهة أهل السنة في المنطقة .

وهكذا تبلور الصراع الطائفي بين الشيعة من جانب والسنة من جانب آخرعلى الأراضي السورية.

ثالثا: حزب الله في لبنان :

حزب الله في لبنان تنظيم شيعي سياسي عسكري تشكّل بعد نجاح الثورة الخمينية عام ١٩٨٢م بتعاون ممنهج بين إيران الفارسية ، والنظام النصيري في سوريا .

كانت فكرة تأسيس حزب الله تقوم على أساس إيجاد دولة داخل الدولة اللبنانية ،حزب له تنظيمه الخاص، وجيشه وسلاحه الخاص، وجهاز اتصالاته الخاص ، له

خططه التي ترمي الى مواجهة الأكثرية السنية في لبنان، وتصفية قياداتهم ورموزهم(اغتيال رئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري وغيره).

شارك الحزب الشيعي الطائفي بلبنان في تدريب الميلشيات الشيعية في بغداد والبصرة ، بل شاركت كتائب من الحزب قبل ذلك في الحرب العراقية الإيرانية (كما يصرح بذلك الشيخ علي أكبر محتشمي) سفير إيران الأسبق لدى سوريا، ووزير الداخلية الإيراني السابق).

ويقول الشيخ صبحي الطفيلي مؤسس حزب الله اللبناني ، والأمين العام الأسبق للحزب في حوار له مع جريدة الشرق الأوسط :إن حزب الله تحول إلى حرس حدود لإسرائيل [٣٨].

أما موقف حزب الله من المواجهة الدائرة بين النظام النصيري والشعب السوري الثائر، فقد دخل حزب الله عسكرياً بخمسة عشر ألف جندي من النخبة إلى جانب النظام السوري بالتنسيق مع إيران والنظام ليشارك النظام في المجازر الجماعية ،والقتل، والاغتصاب، والسرقات، والقمع. وقد صرح حسن نصر الله زعيم الحزب بأنهم باقون في سوريا ، ما دامت الأسباب قائمة .

نظرة واقعية للصراع الطائفي بين السنة والشيعة : [٣٩]

لو نظرنا الى نسبة السنة والشيعة اليوم في العالم لوجدنا أن السنة يمثلون في الأمة الاسلامية ٩٠%، وأما الشيعة فلا تتجاوز نسبتهم ١٠%، فهم طائفة مقابل أمة ، وليسوا طائفة مقابل طائفة، ولا أمة مقابل أمة،(وإن تلاعب بعض الشيعة بهذه النسبة فضاعفها ليزيدوا نسبتهم مقابل أهل السنة) ومع قلة عددهم عاشوا مع أهل السنة بسلام وأمن وأمان، بالرغم من خلافهم العقدي مع أهل السنة.

ورغم أن مذهب الشيعة واضح في تكفير وتضليل الصحابة وأمهات المؤمنين ، فلهم مخالفات كفرية أخرى كقولهم بتحريف القرآن، واعتقادهم علم الأئمة للغيب، وتصرفهم في الكون،وتضرعهم واستعانتهم بهم، كل ذلك لم يبح دماءهم أو أموالهم

.

وغاية موقف أهل السنة في هذه المسألة الدقيقة أنهم يفرقون بين القول أو الذنب الذي سماه الشارع كفرا صراحة وبين الشخص المعيّن ،فهم وإن حكموا على الذنب أو القول بالكفر باعتباره حكم الشرع ، وأما الحكم على الشخص المعيّن بالكفر فلا يقوله أهل السنة ، ا

إلا بعد توفر شروط التكفير وانتفاء موانعه ، وهذا اعتقاد أهل السنة في كل من وقع في شيء من هذه العقائد أوالأقوال المكفرة ، شيعياً كان أم سنياً .

أما القتل والقتال والاعتداء على الشيعة ، فمرجعه -عند أهل السنة- إلى الحكام، ولا يعرف عن ولاة أمر المسلمين السنة - وهم السواد الغالب- أنهم أمروا بالعدوان على الشيعة أو قتالهم لتشيعهم.

وعندما طرح مشروع التقارب بين السنة والشيعة في الخمسينيات من القرن الماضي والتي أطلقها الشيعة ، ولم يطلقها السنة رحّب به بعض أهل السنة وتفاعلوا مع المشروع مخلصين من أجل السعي لتقريب الفجوة بين الجانبين سعياً لتحقيق وحدة الكلمة وجمع الصف.

وتبين بعد جولات من اللقاءات أن الشيعة يهدفون إلى انتزاع اعتراف سني بالطائفة الشيعية ، وتبشير السنة بدعوتهم إلى التشيع ففشل الحوار ، وتراجع عنه عامة من شارك فيه .

ويمكن إجمال موقف أهل السنة من الشيعة بأنه موقف تعايش وتعاون واستقرار أمني ، وأهل السنة يفعلون ذلك مع اليهود والنصارى، وكافة اتباع الملل غير المحاربين ، وقد أصبح مقرراً عند أهل السنة أن ما بيننا وبين الشيعة هو التعايش لا التقارب، بعيداً عن الاحتراب وسفك الدماء.

والخلاصة :

إن الأمة الاسلامية تعيش اليوم حالة من الفتنة والتفرق، والانقسام والتعصب الطائفي ، وواضح أننا في الطريق الى الشرق الأوسط الرهيب ، شرق أوسط سقطت فيه تجربة التعايش بين المكونات المختلفة (لا سيما بين السنة والشيعة)،وهو ما ينذر بتمزق الدول والخرائط.

ويرى الباحث أن الخروج من هذه الأزمة يقتضي أن يلتقي العقلاء من كل طرف لوضع برنامج لخطة عمل مشتركة تهدف الى التقليل من وتيرة التعصب والانغلاق الأيديولوجي ، وأسلوب التعامل مع الطرف الآخر، والتعايش السلمي المشترك.

ويرى الباحث أيضاً أن استبعاد فكرة التقارب، لايعني إغلاق باب التواصل العلمي والثقافي حول المسائل الخلافية المذهبية للانطلاق إلى علاقة أمثل، تقوم على:

١- العودة إلى المرجعية التي يؤمن بها كل مسلم على اختلاف مذهبه وتوجهه الفكري : القرآن الكريم، والسنة المطهرة .

٢- الاتفاق على صيغة لقواعد الاستدلال تكون منطلقاً لكل الأطراف المتنازعة .

٣- انتهاج أسلوب الحوار البناء بشروطه المعروفة كأسلوب للتعامل والجدال للوصول إلى نتائج مثمرة إما بالاتفاق ، أو على أقل تقدير أن يفهم بعضنا بعضاً بصورة أفضل، وبالتالي ننتقل من مرحلة العداوة الحادة إلى مرحلة التفاهم والتعايش السلمي بين مكونات المجتمع المختلفة ، والله اعلم.

الحواشي:

(١) سورة آل عمران /١٠٣

(٢) سورة الروم /٣١-٣٢

(٣) سورة هود /٧٧

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٤\١٩

(٥) لسان العرب لابن منظور ١/-٦٠٢-٦٠٧ بتصرف

(٦) التعصب مظاهرة - أسبابه -نتائجه - بعده الشرعي د. عادل الدمخي ص/٢

(٧) الحوار وآدابه في الإسلام د. عبدالله بن سليمان المشوخي ص/٢

(٨) عادل الدمخي المصدر السابق

(٩) فارس من قبيلة هوازن قاتل المسلمين فقتل في غزوة حنين .

(١٠) التعصب (١) د. عبدالكريم بكار بتصرف.

(١١) سورة الفرقان /٤٣

(١٢) سورة التوبة /٣١

(١٣) التعصب مظاهرة - أسبابه - نتائجه د.عادل الدمخي ص/٤ بتصرف

(١٤) مصنف بن ابي شيبه ١٨٥\١

(١٥) سورة النساء /١٧١

(١٦) التعصب المذموم وأثره على العمل الاسلامي المعاصر إعداد :

د . ماهر أحمد السوسي و أ . محمد كمال السوسي ص/٦ .

(١٧) نفس المصدر .

(١٨) سورة الروم /٣١-٣٢

(١٩) أخرجه أبو داوود في كتاب الأدب باب في العصبية (٤٩٤\٤ح(٥١٢٣))

(٢٠) المرجع السابق باب في تداعي الأمم على الإسلام ١٨٤/٤ح(٤٢٩٩))

(٢١)سورة الحجرات/١٣

(٢٢)سورة النحل/٩

(٢٣)سورة النساء/٥٨

(٢٤)سورة المائدة /٨

(٢٥) رواه مسلم

(٢٦)سورة التوبة /٣١

(٢٧)سورة آل عمران /١٤٤

(٢٨) سورة الحجرات /١٣

(٢٩) سورة الممتحنة /٨

(٣٠) رواه مسلم (٢٥٩٤)

(٣١) رواه مسلم (٢٥٩٣)

(٣٢) أخرجه مسلم (١٩٢٢)

(٣٣) شرح النووي على مسلم ١٣/٦٧

(٣٤) المفردات للراغب الاصفهاني .

(٣٥) جريدة عكاظ عدد/٧٠٥ بتاريخ ١٤٠٧/١٢/١٤هـ

(٣٦) مجلة الدستور اللندنية /١/٨/١٩٨٣ عدد/٢٩٧

(٣٧) العراق الحرب الطائفية ضد السنة بدأت رسميا محمد جمل عرفة ص/١

(٣٨) جريدة الشرق الأوسط عدد ٩٠٦٧ الخميس ٢٥ سيبتمبر ٢٠٠٣ ويقول : أن إيران خطر على التشييع في العالم ورأس حربة المشروع الأمريكي .

(٣٩) انظر الشيعة وسلاح الطائفية د.لطف الله خوجة ص/٣ بتصرف